

انزياح النسق الفكري السائد في نثر صدر الإسلام، بالنظر إلى الذات المنتجة

(صور من فنون: الخطبة والوصية والعهد)

زاهر محمد الشّماع¹*

¹ مدرس، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، دمشق، سوريا.

* zaher.alshammaa@damascusuniversity.edu.sy

الملخص:

يقدم هذا البحث دراسة تهتمّ بالجانب الفكري للأدب، تُرصد فيها حالات من نثر صدر الإسلام، تنزاح في نسقها الفكري عما ساد في نصوص نثر هذا العصر. إذ كان ثمة طابع معيّن للمضمون الفكري، يلحظه الدارس في مجمل نصوص نثر صدر الإسلام، في مختلف الفنون النثرية، ناجم عن تطبّع المنتج (التأثير) بمنظومة فكرية إسلامية. إلا أننا وجدنا حالات خالفت هذا السائد، وبنسب مختلفة، بدءاً من مخالفة تامة، ومروراً بمخالفة جزئية (أو اختلاط بسواها)، وانتهاءً بخلو من المضمون السائد. فسعى البحث بعد رصد هذه الحالات والإضاءة عليها وإثباتها، إلى تقديم تفسير واضح لها ومعرفة أسبابها، بالنظر إلى شخص المنتج (التأثير)، ثم استخلاص النتائج المستشفة من الرصد والتحليل والتفسير.

بدأ البحث بعد المقدمة، بتمهيد حول فنون النثر في صدر الإسلام، ثم انتقل إلى أثر الإسلام في منظومة الفكر الإنساني، ثم شرع، تحت عنوان: النسق الفكري السائد في نصوص نثر صدر الإسلام، مُبيّناً ومُدليلاً، وبدا، أصبحت السبيل ممهّدة لمناقشة قضية انزياح النسق السائد، فوّقت الدراسة على صور من الخطب والوصايا والعهود؛ عرضاً وتحليلاً وتفسيراً، ثم انتهت الدراسة إلى النتائج المستخلصة من المناقشة.

اعتمد في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي، في الوقوف على النصوص النثرية المنتقاة، تبييناً وتحليلاً وتفسيراً، وكذلك المنهج الاجتماعي في الربط بين النص ومنتجه، باعتبار المنتج ذا منظومة فكرية كونها المجتمع المحيط.

الكلمات المفتاحية: الانزياح، النسق الفكري، نثر صدر الإسلام، الذات المنتجة، الفنون النثرية.

• تاريخ الاستلام: 2026/4/6

• تاريخ القبول: 2026/6/1



© 2026 المؤلف (المؤلفون). هذا المقال منشور بنظام الوصول المفتوح بموجب

ترخيص CC BY-NC-SA 4.0

Ideological Deviation in the Dominant Intellectual Paradigm of Early Islamic Prose: A Study of Authorial Self, in Sermons, Admonitions, and Covenants

Zaher Mohamad Alshammaa^{1*}

¹ Assistant Professor, Arabic language department, Faculty of arts and humanities, Damascus university, Damascus, Syria.

* zaher.alshammaa@damsacusuniversity.edu.sy

Abstract: This paper presents a study that focuses on the intellectual aspect of literature, as it examines instances in early Islamic prose whose intellectual content differs from what was prevalent in the prose texts of that era. Because There was a specific character to the intellectual content, which the researcher observes in the entirety of early Islamic prose texts, across various prose genres and subjects. This character stemmed from the prose producer's immersion in an Islamic intellectual system, deeply rooted in his being and firmly established in his mind, soul, and heart, so that his words reflected it. However, we found certain instances that deviated from this common view, with varying degrees, ranging from complete deviation, to partial deviation (or a mixture with other elements), and ending with a complete absence of the common content without any actual disagreement. After observing, highlighting, and documenting these instances, the research sought to provide a clear explanation for them and identify the underlying reasons, considering the prose producer's perspective, and then to draw conclusions from the observation, analysis, and interpretation. The research began after the introduction, with a paragraph that introduced the reader to literary prose and its arts in the early Islamic period. Then it moved on to another issue of interest to the research, which is: the impact of Islam on the system of human thought. Then, in consideration of the logical order, it began under a new title, which is: the prevalence of the Islamic system in the texts of prose in the early Islamic period, by shedding light on the general situation common in the intellectual content, explaining, demonstrating, and citing from various prose arts in the early Islamic period. Thus, the way was paved for discussing the issue raised in the research: disagreement of the prevailing. The study, under this title, focused on: a case of sermons, a case of wills, and a case of covenants; presenting, clarifying, analyzing, and interpreting them. Then the study concluded with the results drawn from discussing this issue. This research adopted the descriptive analytical approach to examining the selected prose texts for the purpose of study, explaining, analyzing, and interpreting them, as well as the social approach to linking the text to its producer, considering that its producer has an intellectual system formed by the surrounding society, in order to understand the interpretation of the phenomenon under study.

Keywords: Deviation, Intellectual Paradigm, Early Islamic Prose, Authorial Self, Prose Genres.

Received: 8/4/2026, **Accepted:** 1/6/2026



© 2026 Author(s). This article is licensed under CC BY-NC-SA 4.0 Open Access License.

مقدمة:

يُصنَّفُ النَّثْرُ العَرَبِيُّ في فنون نثرية مختلفة، كُلُّ منها له أصوله وقواعده وقوالبه الخاصة به، ولكلِّ عصرٍ أدبيٍّ فنونٌ نثريةٌ وُجِدَتْ فيه أو شاعت وازدهرت، تبعاً للحاجة إليها في المجتمع خلال حقبة العصر. وفي حقبة صدر الإسلام فنون نثرية ازدهرت، أبرزها: الخطبة والوصية والعهد والرسالة والمحاورة والمناظرة، فضلاً عن فنون أخرى كانت على نطاق أضيق من الإنتاج أو الشبوع. وحين ينظر الدارس في المضمون الفكري لنصوص مختلف الفنون النثرية في صدر الإسلام، يلحظ حلولَ طابعٍ فكريٍّ معيَّنٍ وسمِّ مجملِ النصوص، بمختلف الفنون، وبمختلف موضوعاتها أيضاً، وما ذاك إلا لانطباع المنظومة الفكرية للمنتج (النَّاثِر) بمبادئٍ معيَّنة عرسها الدِّين الإسلامي في سريرته، فظهرت في كلامه وهو يعبر عن مختلف الموضوعات وبمختلف الفنون، تلك المبادئ هي أساس التشريع الإسلامي، من ارتباطٍ بالخالق، إلى مفهوم العبودية له، إلى الإيمان بما أنزل الله على عباده من تعاليم عن طريق كتابه ونبية... فشكَّلت هذه المبادئ منظومةً فكريةً للإنسان المسلم، طبعتُ نفسه وقلبه وعقله بها، فظهرت في سلوكه وكلامه. ولكننا من خلال استقصاء النظر في النصوص، وجدنا حالات خاصة خالفت ما ساد من مضمون فكري وانزاحت عنه، إمَّا مخالفة تامة، أو جزئية، أو خلَّت منه خلواً تاماً، واستدعى هذا الأمرُ بناء بحثٍ يرصد هذه الحالات، ويقف على تفسيرٍ لها ومعرفة الأسباب الداعية إلى هذا الانزياح. وكان لا بُدَّ - من أجل التدرُّج المنطقي، والانتقال من العام إلى الخاص - من وقوف البحث قبل هذا الانزياح، على الحالة العامة، وهي شبوع المضمون الفكري الإسلامي، مُبَيَّنًا ومُدلِّلاً ومُسْتَشْهِداً من مختلف الفنون النثرية في صدر الإسلام.

اعتُمدَ في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي، في الوقوف على النصوص النثرية المنتقاة لغرض الدراسة، تبييناً وتحليلاً وتفسيراً، وكذلك المنهج الاجتماعي في الربط بين النص ومنتجه، باعتبار المنتج ذا منظومة فكرية كَوَّنَهَا المجتمعُ المحيطُ، للوقوف على تفسير الظاهرة المدروسة.

أولاً: فنون النثر الأدبي في صدر الإسلام:

وَصَلَتْ إلينا مؤلفاتٌ خَلَفَها لنا قُدامى العرب أو قُدامى مُعَتَّقِي العَرَبِيَّةِ، حَوَتْ آثاراً وأخباراً وعلوماً وقصص السلف؛ وفنونُ الكلام فيها متنوّعةٌ، إذ نجد القصص والأخبار والسرديات العلميّة والخطب والرسائل والحكم والأمثال وألوان المراجعات الكلامية كالمحاورات والمفاخرات والمنافرات والمنظرات، وتدرج جميعها ضمن ما يُسمّى: النثر العربيّ. ويكاد يجمع جُلُّ الباحثين والدارسين على أنّ النثر العربيّ له ثلاثة أقسام: النثر العامّيّ المحكيّ، والنثر العلميّ، والنثر الأدبيّ (انظر على سبيل المثال: المقداد، 1993-أ، 61)⁽¹⁾. وينماز النثر الأدبيّ بأنه الكلام الذي يعبر به المنتج (الأديب) عن الأفكار والمعاني المرادة بلغة صادرة عن عقله وقلبه معاً، ولذلك؛ تتسلّل المنظومة الفكرية الإنسانية للمنتج مع إصداره لهذا النثر، تلك المنظومة التي تحمل معها فضلاً عن خصائص الفرد، خصائص المجتمع وأفكاره وقضاياه، ويتسلّل مقدارٌ من الجمال إلى لغة هذا النثر بقدر استطاعة المنتج البيانية واستخدامه فنون اللغة البلاغية استخداماً يناسب مقام الكلام ومقتضاه، ولذلك يمتلك هذا النثر القدرة على التأثير في المتلقّي بقدر ما يحمل من جمال وعاطفة وشعور انفعالي مناسب.⁽²⁾ ويتعبّر مُجمل: يقوم هذا النثر على اللغة المعيّنة عن المراد، مع إعمال عقل المنتج وقلبه بتحرير قلبه اللغوي، فيكتسب الكلام صفة الأدب من خصوصية الإنتاج هذه، ويكتسب صفة الفن من إضفاء فنون اللغة البيانية والبلاغية عليه، ويمتلك معها صفة التأثير بالمتلقّي بقدر مناسبة تلك الفنون لمقامات الكلام ومقتضياته.

وبالنظر إلى النثر الأدبي، يستطيع الدارس أن يميّز فيه بين فنون عدّة مختلفة، كلّ منها يتمتّع بأصول وقواعد وضوابط وكيان مستقلّ. ويمكن تقسيم الفنون النثرية إلى قسمين؛ قسم وُلِدَ واستمرّ إلى يومنا هذا من غير أن يَفنى، وقسم وُلِدَ وكان له عُمرٌ زمنيّ يتضمّن ولادةً ونشوءاً وازدهاراً وهرماً وموتاً، في مسيرة تشبه مسيرة عالم الأحياء من حيث النشوء والارتقاء والفناء. وسبب

(1) وبعضهم اقتصر على القسمين الأول والثالث (المحكيّ، والأدبيّ)، انظر على سبيل المثال: (خفاجي، 1992، 132)، و(مناح، 1993، 22).

(2) انظر الكلام على طبيعة الأدب من حيث عناصر رئيسة له، هي: العاطفة والخيال والمعنى والأسلوب، في: (أمين، 1967، 38 وما بعد).

ذلك: تلبية الفنون النثرية لحاجات المجتمعات على مَرِّ العصور، فلا يُؤلَدُ فنٌّ إلا لحاجة المجتمع إليه، ولا يموت آخر إلا لانتهاء حاجة المجتمع إليه، ولا يستمر ثالث إلا لاستمرار الحاجة إليه. ويبدأ رصدُ الفنون النثرية منذ أقدم عصرٍ وَصَلَتْ إلينا منه الآثارُ النثرية وهو العصر الجاهلي، وكان أبرز ما وصل إلينا من هذا العصر: أسجاع الكُهان، والأمثال، والمنافرات، والمفاخرات، والقصص والحكايات، والخطب، والوصايا، وبعض الرسائل المحفوظة أو المدوَّنة. ثم مات بعضُ هذه الفنون بعد مجيء الإسلام، واستمرَّت أخرى، وولِدَتْ فنونٌ جديدةٌ؛ فالفنون التي انطفأت جذوتها وغابت في صدر الإسلام هي: أسجاع الكُهان، والمفاخرات، والمنافرات. والفنون التي استمرَّت هي: الخطب، والوصايا، والأمثال والحكم، والقصص والحكايات، والمحاورات، والرسائل. أمَّا الفنون الجديدة فأهمُّها: الأدعية، والأحاديث (القدسية والنبوية)، والمناظرات، والتوقيعات، والعهود. (انظر الكلام على الفنون النثرية منذ الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي في: المقداد، 1993-، أ، 75 وما بعد.)

ثانياً: أثر الإسلام في منظومة الفكر الإنساني:

لَمَّا كان النصُّ الأدبيُّ مُنتجاً إنسانياً مُرتبطاً بالإنسان الأديب، كان لا بد من الدخول إلى سريرة شخص المنتج للتعرف إلى (منظومته الفكرية) التي أنتجت النص، "فالأديب في كلِّ ما يصدر عنه من نشاط أدبي، يستلهم تجاربه العقلية والنفسية، ولهذا فالأدب مرآة عقل الأديب ونفسه." (عتيق، 1972، 61) وههنا لا بد من بيان المقصود بمصطلح (المنظومة الفكرية)؛ إذ إنها تدلُّ على: التشكيل المعرفي النفسي لدى الإنسان، الذي يظهر للآخرين من خلال الكلام والسلوك. وتُسهم في صناعة هذا التشكيل مجموعةٌ مؤثِّرات ومكوِّنات تنقسم إلى قسمين؛ الأوَّل جَمعيّ، والآخر فرديّ.

فالجمعيّ يتمثّل بالآتي:

أثر البيئة المكانية من حيث طبيعتها وطبيعة الحياة فيها.

أثر الواقع الاجتماعي على مختلف الصُّعد (سياسياً وثقافياً واقتصادياً...).

الموروث الثقافي (ومنه العادات والتقاليد).

المعتقدات (وأبرزها العقائد والأديان).

الطبيعة النفسية (طبيعة أهل المجتمع، من نَزَقَ وطَيْشَ أو حَلِمَ وحَكَمَ، ومن غَضَبَ أو هدوء، ومن جَدَّ وتَجَهَّمُ أو هَزَلُ ودُعَابَة، وسوى ذلك من صفات نفسية). المعجم اللغوي (طبيعة لغة المجتمع من حيث التعبير عن الأفكار، على صعيد اللفظ والتركيب والأسلوب).

وأما الفردي فيتمثل بأمرين:

خصوصية التفكير.

الموهبة الإبداعية.⁽¹⁾

ولمَّا جاء الإسلام، عمل على تغيير نظرة الإنسان إلى طبيعته البشرية وإلى الحياة عموماً، فبعد أن كانت النظرة في الجاهلية منجَّهةً إلى إعلاء الذات الإنسانية (كالفخر الذاتي والقبلي، والتعصُّب، والثأر للنفس وللقبيلة، والاعتداد بالحسب والنسب والجاه والمال والسلطان...)، أصبح التوجُّه إلى إعلاء الذات الإلهية، ومعرفة حقيقة الإنسان كونه عبداً للخالق العظيم، وصار الافتخار بهذه العبودية وبشدة الإيمان والقرب من الخالق، وصار التعصُّب لله ولدينه وتعاليمه، وكان هذا نقلةً نوعيةً على صعيد العقل والنفس والقلب لدى الإنسان. وفي سبيل هذا المبدأ؛ جاء الإسلام في تعاليمه بأفكار أساسية، حققت الأثر المطلوب في سريرة المسلم ومنظومته الفكرية، وتجلت ذلك بمبادئ سبعة، حلت في سريرة المسلم، تمثلت بالأفكار الآتية:

1- إعلاء الذات الإلهية: من خلال توحيد الخالق وتتنزيهه وبيان قدرته.

2- حقيقة عبودية الإنسان تجاه ربه: من خلال تذليل الذات الإنسانية أمام الذات الإلهية، والإيمان بالقضاء والقدر، وفكرة الموت المحتم، والعودة إلى الخالق بعد الموت للحساب.

3- الإيمان بالملائكة والرسول وبخاتم الرسل محمَّد عليه الصلاة والسلام صاحب الدعوة الإسلامية.

4- الإيمان باليوم الآخر: من خلال العمل له والتهيؤ لما فيه من حساب.

5- الإيمان بالقرآن الكريم كتاب الله المنزل وإتباع ما جاء فيه.

(1) انظر في عموم المنظومة الفكرية للمجتمع، وخصوصيتها لدى الأفراد، في: (أمين، 1967، 23).

6- طاعة الله وتقواه: من خلال فعل ما أمر به من أوامر وتعاليم، والانتهاز عمًا نهى عنه من معاصي ومخالفات. وتكون هذه الطاعة بدافع خوفٍ وطمعٍ معاً، أي الخوف من غضب الله وعقابه والطمع في رضا الله وثوابه.

7- المجاهدة في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه: ابتداءً من مجاهدة النفس والشيطان، وانتهاءً بمحاربة أعداء الدين.⁽¹⁾

ثالثاً: النسق الفكري السائد في نصوص نثر صدر الإسلام:

لَمَّا كان الأدب ابن بيئته، وكل أمة في كل عصر لها طابع خاص يطبع أدبها، فمن الطبيعي أن نجد لأدب صدر الإسلام طابعاً معيناً يعكس حال البيئة والمجتمع. والمطلع على نصوص نثر صدر الإسلام، بمختلف فنونها، وحتى مختلف موضوعات كل فن، يجد أن ما ذكرنا من أفكار إسلامية أساسية، حالٌّ في المضمون الفكري للنص، أي في معانيه وأفكاره، إذ نتجت من تشرب المنتج (الأديب) لهذه الأفكار، وانغراسها في سيرته، فظهرت في كلامه النصي. وإن ما يلفت النظر في هذا الحلول، أنّها حلّت في موضوعات بعيدة عن الدين وما يتصل به. فمن المنطقي عادةً أن يعتمد الناثر في عرض أفكاره على الأفكار الإسلامية حين يكون الموضوع وعظماً دينياً مثلاً، أو شرحاً لأحكام الدين، أو حتى في حثه على الجهاد إن أراد اعتماد الدافع الديني في الحث، أمّا أن يعتمدها في موضوع سياسي محض، أو عسكري حربي محض، أو إداري محض، فهذا مما يُسجّل لدى دارس نثر صدر الإسلام، من أنّ المبادئ الإسلامية السبعة السالفة الذكر، قد حلّت في مختلف الفنون ومختلف الموضوعات، بما فيها الموضوعات البعيدة عن الدين؛ ذلك أنّ الناثر آنذاك ذو منظومة فكرية إسلامية، ولا سيما إن كان ذا شأن ديني، أو من الصحابة الكرام ونحوهم، فحينها، تكون المبادئ الإسلامية المذكورة مغروسةً في نفسه وقلبه، فيتكئ عليها في عرض موضوع النص، فيها يعظُّ، ويشرح أحكاماً، ويحثّ على الجهاد، وحتى إن أراد السياسة، كانت سياسته قائمةً عليها فنجدها عمادَ سياسته.

(1) فضلاً عن المدونات المؤلفة في ميدان الشريعة الإسلامية، فقد وقف كثير من دارسي الأدب الإسلامي، أو دارسي ميادين تاريخية واجتماعية متنوّعة، على الركائز الإسلامية، وعلى رؤية الإسلام إلى الإنسان والحياة والكون. انظر على سبيل المثال: (خفاجي، 1990-، 8 إلى 14)، و(ضيف، 1980، 42-34)، و(عيون السود، 1995، 40 وما بعد).

وإن أردنا عرض أمثلة لحلول المبادئ الإسلامية في موضوعات نثر صدر الإسلام المتصلة بالدين، فأكثر من أن تُحصَى، وهي جليّة جلاء الشمس؛ فخطب الوعظ الديني ووصاياها، وخطب النبي عليه الصلاة والسلام التشريعية الشارحة للأحكام، وكثير من خطب الحثّ على الجهاد، والرسائل المتعلقة بالشؤون الدينية... الخ؛ كل هذه الأمثلة دالة في مضمونها الفكري ومعانيها على شيوع المبادئ الإسلامية وحلولها في النصوص النثرية.

لكنّ الجدير بالتمثيل له هنا، إنما هو الموضوعات الأخرى غير المتعلقة بالشؤون الدينية، كالميدان السياسي، والإداري، والعسكري الحربي، فهذه الميادين التي نشأت في ظل دولة ناشئة هي الدولة الإسلامية، نجد في نصوصها النثرية حلولاً للمبادئ الإسلامية بما يُنبئ عن تشرب ناتها بهذه المبادئ في أعماق سريره القلبية والعقلية، فظهرت في قوله بمختلف ميادين الحياة، لأنها طُبعت الدولة والمجتمع آنذاك بها، وشكّلت عماد الحياة.

ففي خطبة أبي بكر الصديق المنتمية إلى الجانب السياسي، وقف في جمهور المسلمين بعد أن أجمعوا على مبايعته خليفة للنبي عليه الصلاة والسلام، يُفصّح عن سياسته التي سببها وينتهجها في رعاية شؤون المسلمين ودولتهم، فقال بعد أن حمّد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله:

"أما بعد؛ أيّها النّاس: فإني قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعِينوني، وإن أسأت فقوموني؛ الصدق أمانة، والكذب خيانة، والصّعب فيكم قويّ عندي حتّى أريح⁽¹⁾ عليه حتّى إن شاء الله، والقويّ فيكم ضعيفٌ عندي حتّى آخذ الحقّ منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا صرّبهم الله بالدّل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قطّ إلا عمّهم الله بالبلاء؛ أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم." (ابن هشام، 1980، 661/2)

ففي هذه الخطبة الموجزة، برزت عند أبي بكر ثلاثة مضامين أساسية، كانت عماد فكره السياسي، هي:

السيادة والزعامة والسلطة ليست من أجل إعلاء الذات الإنسانية، ولكنها إعلاء للذات الإلهية من خلال إعلاء كلمة الله، بتطبيق قرآنه واتباع نبيه عليه الصلاة والسلام.

(1) قَصَدَ: أَرَدُ وَأَجْعُ. (يقال: أراح الرجل: إذا رجعت إليه نفسه بعد الإعياء. وأرحنا إبلنا: إذا رددناها في وقت

الرّواح، والرّواح: العشي). انظر: (ابن منظور، 1981، مادة: روح)

منهج الحُكم عند أبي بكر قائمٌ على تعاليم الله تعالى في قرآنه وسنة نبيه. شرط طاعة الخليفة التزامه بالتشريع الإسلامي، فإن حاد عنه لهوى ذاتي فلا طاعة له على المسلمين.

وقد تمتلّت هذه المضامين بالمعاني التي ذكرها في خطبته، وهي على الترتيب الآتي: التذلل لله في السيادة والسلطة، والتآخي مع الرعية في الله، والصدق، والعدل، وإتباع الحق، والجهاد في سبيل الله، وطاعة الله وعدم عصيانه بالفواحش من أجل الفوز بنصره وتأييده، وعوداً إلى فكرة التآخي مع الرعية في الله من أجل إعلاء كلمة الله ودينه من خلال علاقة الطاعة وعدمها بين الرعية والخليفة، التي أناطها بطاعة الله تعالى، ثم الاستغفار تذكلاً وامتتاعاً من زهو السيادة والسلطة.

فالسياسة عند أبي بكر، مستمدة من مبادئ الشريعة الإسلامية، وعبر في خطبته عن ذلك، فظهر ما آمن به، في نصه النثري.

ونجد هذا المنحى نفسه في وصية أبي بكر السياسية، حين حضرته الوفاة، واستخلف عمر بن الخطاب من بعده، وأوصاه بقولٍ حلت فيه المبادئ الإسلامية من تقوى الله والعمل لليوم الآخر والخوف من العقاب والطمع في الثواب والأجر والفوز بالجنة... واقتصر أبو بكر في وصيته هذه، على هذه الأفكار، وقد فصل لعمر فيها ليؤكد على أنها أساس الحُكم والخلافة. (انظر الوصية في: الجاحظ، 1999، 45/2)

وكذلك فعل عمر بن الخطاب، في وصية تركها لمن سيأتي بعده خليفة على المسلمين، فنجد فيها تفصيلاً أيضاً في معاني التقوى والعمل الصالح والخوف من الحساب والطمع في الأجر والثواب. (انظر الوصية في: الجاحظ، 1999، 46/2 إلى 48) ويجدر هنا أن يُمنّل لميدان آخر هو الميدان العسكري الحربي، ففي وصية انتمت إلى هذا الجانب، أوصى أبو بكر الصديق يزيد بن أبي سفيان وقد ولّاه قائداً لجيش مقبل على حرب ضد الروم في الشام، فقال فيها:

"إني موصيك بعشر خِلال: لا تقتلوا امرأة، ولا صبيّاً، ولا كبيراً هَرِمًا، ولا تقطع شجراً مثمراً، ولا تخربنّ عامراً، ولا تُعقرنّ شاةً ولا بَعيراً إلا لمأكلة، ولا تفرقنّ نخلًا، ولا تحرقنّه، ولا تُغلنّ، ولا تُجنبنّ." (السيوطي، 1969، 97)

لقد برزت عند أبي بكر، مضامين أساسية في وصيته هذه، ارتكزت في مجملها على تقوى الله وخشيته في أمور الحرب والقتال، وكان تفصيل ذلك، على الترتيب الآتي:

الرحمة والرأفة بالأبرياء من الأعداء، كالنساء والأطفال والشيخوخ.
رحمة المخلوقات الأخرى من الحيوان والنبات.
عدم الغش والمحاباة في أمور الغنائم والمكاسب.
عدم الجبن في القتال.

ولا شك في أنّ المنظومة الفكرية الإسلامية واضحة جليّة في هذه الوصية المنتمية إلى الميدان العسكري الحربي في ظل الدولة الإسلامية الناشئة.
ويجدر أيضاً ههنا أن يُمثّل لميدان ثالث هو الميدان الإداري، في ظل دولة الإسلام الناشئة، ففي رسالة كتبها عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري إذ ولّاه على أمر القضاء، نجد فيها فضلاً عن قوانين القضاء، تجلياً للمبادئ الإسلامية الأساسية، فمما جاء فيها:

"الْفَهْمُ الْفَهْمُ عِنْدَمَا يَتَلَجَّجُ فِي صَدْرِكَ مِمَّا لَمْ يَبْلُغْكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اعْرِفِ الْأَمْثَالَ وَالْأَشْبَاهَ، وَقِسِ الْأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ اعْمُدْ إِلَى أَحَبِّهَا إِلَى اللَّهِ، وَأَشْبِهِهَا بِالْحَقِّ فِيمَا تَرَى..."

ثم إِيَّاكَ وَالْقَلْقَ وَالصَّجَرَ، وَالتَّأْدِيَّ بِالنَّاسِ، وَالتَّنَكُّرَ لِلْخُصُومِ فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ، الَّتِي يُوجِبُ اللَّهُ بِهَا الْأَجْرَ، وَيُحْسِنُ بِهَا الدُّخْرَ، فَإِنَّهُ مَنْ يُخْلِصُ نِيَّتَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ، يَكْفِيهِ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْهُ خِلَافَ ذَلِكَ، هَتَكَ اللَّهُ سِتْرَهُ، وَأَبْدَى فِعْلَهُ. فَمَا ظَنُّكَ بِثَوَابِ اللَّهِ فِي عَاجِلِ رِزْقِهِ وَخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ؟! وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ." (الجاحظ، 1999، 49/2-50)

فما يبرح عمر يؤكد ويشدّد على التمسك بتعاليم القرآن والسنة النبوية، ثم تحكيم العقل فيما هو أقرب إليهما، وأدنى إلى الحق. وينوّه بثواب الأعمال الصالحة الحسنة عند الله، من أجر عظيم في الدنيا وفي الآخرة. وذلك التوجيه، إنما هو في خضمّ رسالة تُصنّف في الجانب الإداري وهو القضاء، أحد مؤسسات الدولة الإسلامية آنذاك.

ومن هنا، ومن رصد النصوص النثرية المختلفة في المصادر، يتجلى - مثلما ظهر في الأمثلة السابقة - حلول المبادئ الإسلامية الأساسية في مضامين شتى نصوص نثر صدر الإسلام، بمختلف فنونه، ومختلف موضوعات كل فن؛ ذلك أنّ تلك المبادئ كانت مغروسةً في سريرة الناثر، في نفسه وقلبه وعقله، فظهرت في خلال مضامين كلامه دالّة

على أنها عمادُ حياة المسلم وعمادُ الدولة الإسلامية الناشئة، على الصُّعْدِ كَأَفَّةٍ: السياسية والدينية والعسكرية والإدارية...إلخ.

رابعاً: انزياح النسق الفكري السائد:

إنَّ الدارس إذ يجد حلول المبادئ الإسلامية الأساسية في مضامين نصوص نثر صدر الإسلام، فتمَّة نصوص خالفت النسق السائد وانزاحت عنه، وكان هذا الانزياح لأسباب خاصة، مستثناة من الحالة العامة الشائعة.

صورة من الخطب:

في فن الخطب، تمَّة صِنْفٌ أُدرِج تحت عنوان: الوفاة، وخطب الوفادات صِنْفٌ شاع في صدر الإسلام، كانت خطبه حال وفاة إحدى القبائل على النبي عليه الصلاة والسلام لإعلان إسلامها، أو على أحد الخلفاء الراشدين فيما بعد، لعرض وضع أو شكوى، أو وفود القبائل إلى مركز الخلافة لتأييد موقف سياسي أو إبداء رأي.

وفي حال الوفاة على النبي عليه الصلاة والسلام، وصلت إلينا خطبٌ قالها بعض خطباء القبائل الوافدة، شابته المفازات الجاهلية، ذلك أنها صدرت عن خطباء ذوي منظومة فكرية جاهلية قبيل إسلامهم، فيقف أحدهم أمام النبي عليه الصلاة والسلام وصحبه، ويلقي خطبة مطبوعاً بالمضمون الفكري الجاهلي، في معانيها وأفكارها؛ مثال ذلك خطبة عطارِد بن حاجب بن زُرارة التميمي، وقد قَدِمَ مع وفد بني تميم إلى النبي عليه الصلاة والسلام في العام التاسع الهجري (عام الوفود)، وحين وصلوا إلى مسجد النبي عليه الصلاة والسلام حيث كان يقطن في بعض حُجراته، نادوه من وراء الحُجرات (أن اخرج إلينا يا محمد)، فأذى صياحُهم رسولَ الله، فخرج إليهم، (وفيهم نزلت سورة الحُجرات)، وقالوا له: (يا محمد جئناك لنفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا، قال: نعم، قد أذنتُ لخطيبكم فليقلن)، فقام إليه عطارِد، فقال:

"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ عَلَيْنَا الْفَضْلُ وَالْمَنْ، وَهُوَ أَهْلُهُ، الَّذِي جَعَلَنَا مُلُوكاً، وَوَهَبَ لَنَا أَمْوَالاً عِظَماً، نَفْعَلُ فِيهَا الْمَعْرُوفَ، وَجَعَلَنَا أَعْرََّ أَهْلِ الْمَشْرِقِ، وَأَكْتَرَهُ عَدَدًا، وَأَيَسَرَهُ عَدَّةً، فَمَنْ مِثْلُنَا فِي النَّاسِ؟ أَلَسْنَا بِرُؤُوسِ النَّاسِ وَأُولِي فَضْلِهِمْ؟ فَمَنْ يُفَاخِرُ فَلْيَعْدِدْ مِثْلَ مَا

عَدَدْنَا، وَإِنَّا لَوْ نَشَاءُ لَأَكْثَرْنَا الْكَلَامَ، وَلَكِنْ نَحْيَا مِنَ الْإِكْثَارِ فِيمَا أَعْطَانَا، وَإِنَّا نَعْرِفُ بِذَلِكَ.
أَقُولُ هَذَا لِأَنَّ تَأْتُوا بِمِثْلِ قَوْلِنَا، وَأَمْرٍ أَفْضَلَ مِنْ أَمْرِنَا." (ابن هشام، 1980، 562/2)

ففي حين نجد في نصوص نثر صدر الإسلام معاني إعلاء الذات الإلهية، وعبودية الإنسان لربه، وتنزيه الخالق، وفكرة الموت واليوم الآخر والحساب، والدعوة إلى الزهد، والدعوة إلى التمسك بتعاليم الإسلام، وما إلى ذلك مما ينطلق من الذات الإلهية مع قَدَح النفس ولجمها، أو سائر ما يترجم المبادئ الإسلامية الأساسية التي ذكرناها. إلا أننا في هذه الخطبة الملقاة أمام جمهور المسلمين في العام التاسع الهجري، نجد خلاف المضمون الفكري الإسلامي، نجد مضموناً ينتمي إلى المنظومة الفكرية الجاهلية، التي كانت تنطلق من الذات الإنسانية وإثباتها وإعلانها وإشباع نوازعها. فالافتخار، وتضخُّم الذات وإعلاء شأنها، كان عمادَ المضمون الفكري لنص عطارد، بالرغم من ابتداء عطارد بحمد الله والاعتراف بأنه واهبهم القدرات والخصال، فلعلَّ هذا من محاولة عطارد التقرب إلى المسلمين بتوحيد المقدمة الفكرية بينهما، فكان الابتداء بمحاولة الاتفاق لا الاختلاف، إذ ليس مراد هذا الوفد معادة المسلمين، وإنما على العكس، قد جاؤوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام وصحبه للانضمام إليهم، ولا سيما بعد نصر المسلمين العظيم في العام الثامن الهجري إذ فتحوا مكة منتصرين.

وبرصد معاني هذه الخطبة على الترتيب، تظهر لنا على النحو الآتي:

الافتخار بالسلطة والملك، وبالمال، وبالتفضُّل على الناس، وبالعزة، وبالجاه، وبتأكيد السيادة والتفضُّل، ثم ظهرت سمات: الكِبَر، والعَصِيَّة، والجفاء، في كلامه.

إنَّ هذه المعاني أشبه ما تكون بمعاني خطب المفاخرات والمنافرات الجاهلية، لكنها قيلت ههنا في عصر الإسلام وأُلقيت أمام جمهور مسلم. وهذا مما يدعو الدارس إلى تسجيل هذه الحالة حالةً منزاحةً عن النسق الفكري السائد في نصوص نثر صدر الإسلام، ولا شك في أنَّ السبب جليٌّ، وهو انعدام المنظومة الإسلامية في سريرة القائل، إذ أتى مع وفده قبيل إسلامهم، وكانت الطبيعة الجاهلية مغروسةً في عقله وقلبه ونفسه، فظهرت في كلام نصه النثري، وخالفت المضمون الفكري الإسلامي مخالفةً تامَّةً.⁽¹⁾

(1) وقد ردَّ عليه أحدُ الصحابة بخطبة معارضة مناقضة بعد أن أذن النبي عليه الصلاة والسلام له، وهو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي الأنصاري، فكانت خطبته ذات طابع فكري إسلامي، ناقضت معاني خطبة عطارد وبزَّتْها. انظر الخطبة في: (ابن هشام، 1980، 562/2)

صورة من الوصايا:

نفق على نص ممّا خالف حلول المضمون الفكري الإسلامي، ينتمي إلى فن الوصايا النثري في صدر الإسلام، وهو وصيّة لقيس بن عاصم المنقري، أوصى بها بنيه حين أحسّ بدنوّ أجله، إذ جمعهم وقال لهم:

"يا بَنِي؛ خُذُوا عَنِّي، فلا أَحَدٌ أَنْصَحُ لَكُمْ مِنِّي: إذا دَفَنْتُمُونِي فانصرفوا إلى رحالكم، فسَوِّدُوا أَكْبَرَكُمْ، فَإِنَّ القومَ إذا سَوَّدُوا أَكْبَرَهُمْ خَلَّفُوا آباءَهُمْ، وإذا سَوَّدُوا أَصْغَرَهُمْ، أزرى ذلكَ بهم في أَكْفائِهِمْ. وإياكم ومعصيةَ الله، وقطيعَةَ الرَّحِمِ. وتمسَّكوا بطاعةِ أُمَرائِكُمْ، فإنهم مَنْ رَفَعُوا ارْتَفَعُوا، وَمَنْ وَضَعُوا انْتَضَعُوا. وعليكم بهذا المالِ فاستصلحوه، فإنه مُنْبَهَةٌ للكريم، وَجُنَّةٌ لِعِرْضِ اللئيمِ. وإياكم والمسألة، فإنها آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ، وإن أَحَدًا لم يسألِ إلا تَرَكَ الكَسْبَ. وإياكم والنيّاحة، فَإني سمعتُ رسولَ الله ينهاي عنها. وادفوني في ثيابي التي كنتُ أُصَلِّي فيها وأصوم. ولا يَعلَمُ بكر بن وائل بمدفني، فَإني كنتُ أَعادِيهِم في الجاهلية، وبيننا وبينهم خِماشاتٌ، فأخاف أن يُدْخِلُوا عليكم بي عارًا. وخذوا عَنِّي ثلاثَ خِصال: إياكم وكُلَّ عِرْقِ لئيمٍ أن تُلايسوه، فَإنه إن يُسْرِرْكُمْ اليومَ، يَسُؤْكُمْ غداً، واكظموا الغيظَ، واحذروا بني أَعْداءِ آبائِكُمْ، فإنهم على منهاجِ آبائِهِمْ، ثم قال:

أحيا الضَّغائِنَ آباءَ لنا هَلَكُوا فَلَنْ تَبِيدَ ولِلآباءِ أبناءُ"

(الآبي، 1981، 260/6)

بالنظر إلى المضمون الفكري في هذه الوصية، والمعاني والأفكار المكوّنة منها، يُلاحظُ اختلاطَ ظاهرٍ بين المنظومة الجاهلية والمنظومة الإسلامية، واقتضى هذا، التوجّه إلى النظر في شخص منتج النص، لندرس سبب هذا الاختلاط في منظومته الفكرية.

كان قيسٌ أحدَ أمراء العرب وعقلائهم في الجاهلية، والموصوفين بالحلم والشجاعة فيهم، وكان شاعراً، وسيّداً، ومِمَّنْ حَرَّمَ على نفسه الخمر. لم يُسلم حتى العام التاسع الهجري، وقد أتى مع وفد بني تميم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام حين أتوا ليسلموا، وأكرمه النبي حين رآه وقال: هذا سيّد أهل الوَبَرِ، ثم استعمله على صدقات قومه. وتُوفِّي قيس نحو عام عشرين للهجرة. (انظر: ابن عبد البرّ، 2002، 610)

فصحيحٌ أنّ قيساً كان من حكماء الجاهلية وعقلائهم ومِمَّنْ يُشار إليه بالبنان في العقل والسيادة والشرف، إلا أنّ القيم التي كانت تُعدُّ في الجاهلية قيماً ساميةً نزيهةً شريفةً

ليست كلها مما أقره الإسلام حين أتى، إذ إنَّ الشريعة الإلهية الحقّة هي الأعلّم بصالح الفرد والمجتمع، فوافقَ بعضُ قيمِ الجاهلية قيمَ الإسلام، وخالفَ كثيرٌ منها ما أقرّه الإسلام. ولمّا كان قيسٌ قد قضى جُلَّ حياته في الجاهلية، ولم يكن في أوائل من أسلم حين صدّع بالدعوة، ولم يشهد ما شهده أوائل المسلمين في السنوات التي سبقت الهجرة، ثم في السنوات التالية للهجرة حتى فتح مكة العظيم في العام الثامن، وما كان في تلك السنوات النافذة على العشرين، من إيمان فريد وجهاد نادر وعذاب واصلب، ممّا كان له الأثر الكبير في نفوس وقلوب الأوائل وأجلى منها المنظومة الجاهلية ونسّفها نسفاً، وأحلَّ محلّها المنظومة الإسلامية بغرسٍ راسخٍ لا يتزعزع ولا يحدد؛ فقد بقيت في نفس قيسٍ وقلبه آثارٌ من المنظومة الجاهلية بمضامينها الفكرية وقيمتها ومعانيها التي كانت سائدة في المجتمع قبل الإسلام، ولم يُربِّب التربية الإيمانية التي رُبِّبها كبار الصحابة وأوائل المسلمين.

وبالنظر في مضمون هذه الوصية الفكرية، نلاحظ فيه تقسيمين يتبعان نقطتي انطلاق مختلفتين في النظر، فالنقطة الأولى هي (الموصي والموصى)، والأخرى هي (الجاهلية والإسلام). فأما فحوى الأولى فهو أنّ بعض الوصايا الواردة في الوصية يصبّ - من وجهة نظر الموصي - في صالح الموصي، وبعضها الآخر يصبّ في صالح الموصى (الأبناء). وأمّا فحوى الأخرى فهو أنّ بعض الوصايا الواردة ينتمي إلى المنظومة الفكرية الجاهلية، وبعضٌ ثانٍ ينتمي إلى الإسلامية، وثمة بعضٌ ثالثٌ كان محايداً لأنه يصلح للانتماء إلى كلا المنظومتين بحسب النّيّة وبحسب التصرف به.

وممّا يهّم هذه الدراسة، إنما هو النقطة الثانية في التقسيم الأنف الذكر، وهي اختلاط المعاني الجاهلية بالمعاني الإسلامية في وصايا قيس الواردة في النص.

فالمعاني الإسلامية الواردة لديه: التحذير من معصية الله، والتحذير من قطيعة الرّحم، واتباع النبي عليه الصلاة والسلام في نهيه عن النياحة (وخوفاً من إلحاق عقابٍ به بعد موته بسببها)، والإيمان بالحساب بعد الموت من خلال الإيمان بأنّ تعبّد المسلم بصلاته وصيامه يؤمّنه وينجيه بعد الموت، ودعوة الأبناء إلى كظم الغيظ.

والمعاني الجاهلية الواردة في النص: تسويد الأكبر سنّاً، طاعة الأُمراء بُغية الرّفعة والعلوّ، درء العار الناتج عن الأخذ بالثأر بنبش القبر وما شابه ذلك، بسبب مشاحنات سابقة (وهي عادات جاهلية).

وأما المعاني المحايدة، فكانت: الاهتمام بالحياة المعيشة (إذا دفتنموني فانصرفوا إلى رحالكم)، واستثمار المال بغية فوائده الدنيوية، والتحذير من المسألة والذل، والتحذير من مخالطة اللئام، والتحذير من العداوات المتوارثة.

ومن هذا التقسيم في رصد معاني الوصية، يتبين أن المضمون الفكري ههنا لم يخالف المضمون الإسلامي مخالفة تامة، وإنما اختلط فيه الجاهلي الإسلامي، نتيجة بقاء آثار المنظومة الفكرية الجاهلية في نفس الموصي وقلبه بالرغم من إسلامه، وذلك للتفسير الذي قدمنا به حول شخص الموصي (قيس).

صورة من العهود:

نقف على نص، ينتمي إلى فن العهود النثري في صدر الإسلام، لا أثر فيه للمبادئ الإسلامية التي شاعت في نصوص نثر صدر الإسلام، ثم إنه خالف، في مواضع منه، بعض اصطلاحات الإسلام، لأسباب خاصة سنأتي على ذكرها. إنه نص (صلح الحديبية)، الذي كتبت لإقامة صلح وهذنة بين المسلمين من جهة، وأعدائهم من مشركي قريش من جهة أخرى؛ ذلك أن النبي وصحبه في العام السادس للهجرة وكانوا في المدينة المنورة، ارتأوا أن يزوروا مكة لزيارة البيت الحرام والعمرة، فلما علم المشركون بالأمر، خرج فئة منهم لاعتراض المسلمين في الطريق بين المدينة ومكة، والتقى الطرفان في مكان قرب مكة على طريق جدّة، دُعي بالحديبية نسبةً لاسم بئر فيه، وتفاوض الطرفان واتفقا على كتابة عهد بينهما يضمن صلحاً وهذنةً، وتضمن شروطاً رضي بها الطرفان. (انظر خبير الصلح والعهد في: ابن هشام، 1980، 316/2 إلى 319)

ومن ههنا، وقبل إيراد النص، نلاحظ بل نلمس أول تفسير لعدم حلول المبادئ الإسلامية، أو ورود شيء منها؛ إذ لم ينطلق النص من مضمون فكري إسلامي، ولا من مضمون جاهلي، وإنما غاية النص التصريح بالصلح وتحديد شروط العهد فحسب، في حين حلّ في سواه من العهود الإسلامية المضمون الفكري الإسلامي.

وقد ترأس طرف المسلمين النبي عليه الصلاة والسلام في التفاوض، وترأس طرف المشركين سهيل بن عمرو بن عبد شمس، وحين عزموا على كتابة العهد، "دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم؛ قال: فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اكتب باسمك اللهم، فكتبها؛ ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله

سهيل بن عمرو؛ قال: فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك؛ قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اكتب: باسمك اللهم؛ هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلاحاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يرؤوه عليه، وإن بيننا عيبة⁽¹⁾ مكفوفة، وأنه لا إسلال⁽²⁾ ولا إغلال⁽³⁾، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه. (ابن هشام، 1980، 317/2-318)

أول ملاحظ في هذا النص، ابتداءه بعبارة (باسمك اللهم)، وهي عبارة كانت قريش تبدأ بها كتبها، ابتدع ذلك: أمية بن أبي الصلت (انظر: الزركلي، 2002، 23/2). وقد ورد في خبر الصلح أن النبي أراد أولاً أن يبدأ العهد بعبارة (بسم الله الرحمن الرحيم)، فأبى سهيل لأن قريشاً لا تعرفها ولا تقر بها، فرضي النبي الابتداء بما ارتضى سهيل: (باسمك اللهم)، إذ إنها لا تخالف - في دلالتها - المبادئ الإسلامية إلا بالعدول عن تركيب العبارة القرآنية: (بسم الله الرحمن الرحيم)، ثم إن النبي أراد إتمام الصلح، فرضي هنا بمخالفة التركيب القرآني بما لا يخالف جوهر الدلالة أو يتعارض مع الشريعة الإسلامية.

وورد في خبر الصلح أيضاً أن النبي لقن كاتب العهد في مطلعته (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو...) فاعترض سهيل وقال له لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، فرضي النبي بذكر اسمه منسوباً إلى أبيه عبد الله فحسب، للسبب الذي ذكرناه من رغبته في إتمام الصلح، وههنا مخالفة ظاهرية لمبدأ إسلامي هو نبوة النبي محمد وكونه رسول الله، فقد عدل النبي عن الإقرار بكونه رسول الله ههنا، مراعاةً للآخر المختلف معه فكراً

(1) العيبة: وعاء من آدم، يكف به المتاع من ثياب ونحو ذلك. وكانت العرب تُكفي عن الصدور والقلوب التي تحوي الضمائر المخفاة بالعياب. والمقصود ههنا: كفى الحقد والضغينة في القلوب وعدم إظهارها في مدة الصلح بين الطرفين. انظر المعنى اللغوي، وتفسير الدلالة الواردة في العهد، في: (ابن منظور، 1981، مادة: عيب).

(2) الإسلال: السرقة خفية.

(3) الإغلال: الغش والخيانة.

وعقيدة، من غير أن يطعن الأمر بالشريعة الإسلامية أو بحدودها، إذ إن ذكر اسم النبي محمد منسوباً إلى أبيه، من غير لقب النبي أو الرسول، لا يُسيءُ أو يطعن، ولا سيما في نصّ غايته إثبات شروط صلح مع العدو، وإنما رضي النبي ههنا بعدم ذكر ما يخالف الآخر المختلف معه، احتراماً لعقيدة الطرف الآخر المعاهد، وتسييراً للصلح والهدنة، بما لا يمسّ حدود الإسلام بإساءة أو طعن.

وكذلك نلاحظ في الشروط المذكورة، انعدام ذكر لقب النبي عليه الصلاة والسلام، وإنما ذُكر اسمه (محمد) فحسب، في المواضع الثلاثة الواردة ضمن الشروط، وينطبق التفسير المذكور آنفاً نفسه على هذه المواضع، من اعتراض سهيل، ورضا النبي عليه الصلاة والسلام، وسبب هذا وذلك.

والمعاني الواردة في العهد، لم تكن إلا الشروط التي اتفق عليها الطرفان، ولا أثر للمنظومة الفكرية الجاهلية ولا الإسلامية فيها، فغاية النص التعاهد وإقامة هدنة وتوضيح شروطها فحسب، ولم يستدع أي معنى يخص الفكر الجاهلي ولا الإسلامي.

ويجدر ههنا ذكر وقائع تبعت كتابة هذا العهد، مما يؤيد نبوة النبي وصدور سلوكه وتصرفه عن وحي إلهي، ويفسر موافقته على شروط سهيل التي بدت مُحجفة بحق مقام النبوة وحق المسلمين. إذ خرق شرط من شروط العهد بعد أقل من عامين من قبل بعض قبائل المشركين، فحُق للمسلمين المبادرة بالانقضاء على المشركين في مكة وحدث الفتح العظيم فتح مكة بنصر الله وتأييده في العام الثامن للهجرة، وكان نصراً مُبيناً للمسلمين ودينهم آنذاك. وكان النبي قبل كتابة العهد قد رأى رؤيا مبشرة بهذا الفتح، وأخبرها لأصحابه، فكانوا يوم كتابة العهد لا يشكّون بالنصر المقبل، بالرغم من الصلح وما في شروطه من غيب ظاهر. (انظر: ابن هشام، 1980، 318/2)

وخلاصة القول في نص هذا العهد: إنه انزاح عن السائد وخالفه ولم يتضمّن مضموناً فكرياً إسلامياً، ثم إنه عدل ظاهرياً عما ورد في الشريعة الإسلامية في فكرتين، الأولى: مخالفة البسمة الإسلامية، والأخرى: عدم ذكر لقب النبوة أو لقب (رسول الله). وأتينا على تفسير انعدام المضمون الإسلامي، وتفسير المخالفة الأخرى في الفكرتين المذكورتين. فمن ثمّ؛ رُصدت هذه الحالة انزياحاً عن النسق الفكري السائد في الجهود الإسلامية.

نتائج البحث:

- 1- ثمة نصوص من نثر صدر الإسلام، انزاحت عن النسق الفكري السائد في مضمونها؛ النسق القائم على مبادئ إسلامية أساسية شاعت في سرائر المسلمين ومجتمعهم ودولتهم الناشئة، وكان هذا الانزياح لأسباب خاصة، مستثناة من الحالة العامة الشائعة، تخصّ حال النَّاثِر (كما في حال الخطيب عطار بن حاجب، وكذلك حال الموصي قيس بن عاصم)، أو مراعاة مقام النصّ والآخر المختلف (كما في حال صلح الحديبية).
- 2- هناك درجات للانزياح المرصود، وذلك تبعاً لما ورد في النصوص من مخالقات، بدأت من الانزياح التام (كما في خطبة عطار)، ومروراً بالخلط بين المخالفة والموافقة (كما في وصية قيس)، وانتهاءً بانعدام وجود منظومة فكرية معيّنة لاقتضاء طبيعة النص (كما في صلح الحديبية)، والتوافق مع الآخر المخالف (ظاهرياً) من غير المساس بحدود المبادئ (كما في صلح الحديبية أيضاً).
- 3- تبيّن من خلال الوقوف على المضمون السائد في النثر، واستثناءات كوصية قيس بن عاصم، أنّ ثمة تفاوتاً في انغراس المنظومة الفكرية الإسلامية داخل سريرة المسلمين آنذاك؛ فمن إيمان عميق راسخ وتغيّر جذري تامّ في المنظومة الجاهلية وتخلّ عن الفكر الجاهلي تخلياً تاماً، إلى تأرجح بين التليد الجاهلي والجديد الإسلامي داخل السريرة.
- 4- تجلّت من خلال الوقوف على أسباب استثناءات النسق السائد في النثر، مرونة الفكر الإسلامي، وتقبّله للآخر، كما في حال استماع النبي عليه الصلاة والسلام ومَنْ معه من المسلمين لخطبة عطار المخالفة للطبيعة الإسلامية، وكذلك في حال قبول النبي عليه الصلاة والسلام موافقة فكر الجاهليين من غير المساس بحدود الإسلام، في صلح الحديبية.
- 5- تبيّن من نص صلح الحديبية، في مراعاة النبي عليه الصلاة والسلام فكر الجاهليين غير الماسّ بحدود الإسلام، الفطنة في التفكير الإسلامي، إذ كان المقام مقام صلح عسكري أو مهادنة سياسية، بين المسلمين والمشركين، واقتضت الفطنة والحكمة التقرب إلى الطرف الآخر لإقامة العهد (الصلح)، فالمنظومة الفكرية الإسلامية إذ لا يعوزها الفطنة والحكمة في تعاملاتها السياسية والعسكرية وفي سائر الميادين.

المصادر والمراجع:

- 1- الآبي منصور بن الحسين، 1981- نثر الذر. تحقيق: محمد علي قرنة. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج7.
- 2- أمين أحمد، 1967- النقد الأدبي. ط:4، دار الكتاب العربي، بيروت، 511.
- 3- الجاحظ عمرو بن بحر، 1999- البيان والتبيين. تحقيق: عبد السلام هارون. دار الجيل، بيروت، ج4.
- 4- خفاجي محمد عبد المنعم، 1990- الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام. دار الجيل، بيروت، 592.
- 5- خفاجي محمد عبد المنعم، 1992- الحياة الأدبية في العصر الجاهلي. دار الجيل، بيروت، 500.
- 6- الزركلي خير الدين، 2002- الأعلام. ط:15، دار العلم للملايين، بيروت، ج8.
- 7- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، 1969- تاريخ الخلفاء. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط:4، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 535.
- 8- ضيف شوقي، 1980- الفن ومذاهبه في النثر العربي. ط:9، دار المعارف، القاهرة، 399.
- 9- ابن عبد البر يوسف بن عبد الله القرطبي، 2002- الاستيعاب في معرفة الأصحاب. تحقيق: عادل مرشد. ط:1، دار الأعلام، عمّان، 1025.
- 10- عتيق عبد العزيز، 1972- في النقد الأدبي. ط:2، دار النهضة العربية، بيروت، 379.
- 11- عيون السود نزار، 1995- نشوء وتطور الفكر (النفسي- الاجتماعي) عند العرب. اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 237.
- 12- المقداد محمود، 1993- تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية. ط:1، دار الفكر، دمشق، 296.
- 13- المقداد محمود، 1993- تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام. ط:1، دار الفكر، دمشق، 424.

- 14- مناع هاشم صالح، 1993- النثر في العصر الجاهلي. ط:1، دار الفكر العربي، بيروت، 200.
- 15- ابن منظور، 1981- لسان العرب. تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي وسيد رمضان أحمد. دار المعارف، القاهرة، 6ج.
- 16- ابن هشام عبد الملك، 1980- السيرة النبوية. تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. دار القلم، بيروت، 2ج.